الأبعاد ما بعد الكولونيالية في المتخيل السردي لآسيا جبار
رواية "بوابة الذكريات" أنموذجًا - دراسة مقارنة -

Postcolonial Dimensions in Assia Djebar's Narrative Imagination The novel "Gate of Memories" as a model - a comparative study -

عواطف تامة [1,*]، علي دغمان [2]

[1] جامعة الوادي، (الجزائر)، tamma-aouatef@univ-eloued.dz

[2] جامعة الوادي، (الجزائر)، ali-dogmane@univ-eloued.dz

مخبر التكامل المعرفي بين علوم اللغة العربية وآدابها والعلوم الاجتماعية – جامعة الوادي-

تاريخ الإيداع: 2024/10/01 **تاريخ المراجعة**: 2024/12/14 **تاريخ النشر**: 2024/12/22

الملخص:

تعد رواية بوابة الذكريات من أهم الروايات التي سعت من خلال متخيلها السردي إلى الكشف عن الكثير من القضايا والأبعاد ما بعد الكولونيالية، خاصة فيما ارتبط بعلاقة الأنا بالآخر على كافة المستويات والمجالات على اختلافها، وباعتبارها مقاومة ثقافية استطاع من خلالها الأدب الهامشي إسماع صوته، وكتابة تاريخه، ونقل واقعه، واستغلال ثقافة الآخر والانفتاح عليها من جهة، ومن جهة أخرى تفكيك وفضح المركزية الكولونيالية.

الكلمات المفتاحية: ما بعد الكولونيالية، البطريكية، النسوية، الأنا، الآخر، مقارنة.

Abstract:

The novel "The Gate of Memories" is a significant work that uses narrative imagination to explore various post-colonial issues, particularly the relationship between the self and others across different levels and fields. It serves as a form of cultural resistance, allowing marginalized literature to make its voice heard, document its history, and convey its reality. The novel also explores the exploitation of the other's culture, the opening up to it, and the dismantling and exposure of colonial centralism

***Key words**: post-colonialism, feminism, ego, otherness, comparison .*

* المؤلف المراسل.

مقدمة:

يعتبر المتخيل السردي وسيلة مهمة ومقصودة يستعملها الروائي لِيُماهي بين عالمي التخييل والواقع، لينتج نصا جديدًا ويجعل المتلقي يبحث ما بين السطور وينبش عن المسكوت عنه، وهذا ما سماه علي حرب « باستراتيجية الحجب»[1]، جامعا بين المكون السردي والمرجعية الثقافية وما تحمله من تعدد، وتعد الرواية الجزائرية المهاجرة أرضا خصبة لذلك فقد استطاعت من خلال متخيلها السردي الوقوف على العديد من القضايا المسكوت عنها بطريقة تخيلية وخاصة الروايات التي عايشت النظرية ما بعد الكولونيالية، فجاء هذا الخطاب متأثرا بها وحاملا لأفكارها، ورواية "بوابة الذكريات" لآسيا جبار واحدة من هذه الروايات ، وهذا ما جعلنا نسقط اختيارنا عليها في بحثنا هذا لقابلية متخيلها السردي على استيعاب وتمثل الأبعاد ما بعد الكولونيالية في ثوب جمالي وفكري راقٍ، للكشف عن البعد الكولونيالي وفضح ما بقي من الاستعمار، باستعمال أقنعة متنوعة؛ وذلك من خلال إحداث مقاربة مقارنية بين الأنا والآخر، وللوصول إلى ذلك انطلقنا من الإشكالية الآتية: ما هي الأبعاد الكولونيالية التي استوعبها المتخيل السردي لرواية بوابة الذكريات؟ وهل استطاعت هذه الأبعاد أن تبقي على الفكرة النمطية لمركزية الآخر واعتبار الأنا تابعًا؟ أم أعلت من شأن الأنا وفضحت مركزية الفكر الكولونيالي؟

وللإجابة عن كل هذا، ونظرا لطبيعة الموضوع حرصا منا على إخراجه بمظهر نقدي جديد اقتضت المقاربة الاعتماد على المنهج الثقافي.

تمهيد

تمثل رواية "بوابة الذكريات" شاهدًا على التّحولات التي عرفتها الشعوب المستعمرة أثناء الفترة الاستعمارية وبعد جلاء الاستعمار؛ ومادة دسمة حافلة بالخطابات الأيدولوجية في إطار ديالكتيك الأنا والآخر من منظور ما بعد الكولونيالي، هذا ما جعلنا نبحث عن أهم الأبعاد ما بعد الكولونيالية في المتخيل السردي للرواية، لكن قبل ذلك لا بدّ بالوقوف أولا على تصور مفاهيمي حول موضوع الدراسة.

أولاً: تصور مفاهيمي حول مصطلح ما بعد الكولونيالية:

يعتبر مصطلح ما بعد الكولونيالية من أهم المصطلحات المعاصرة التي أطلقها النقاد بعد الحرب العالمية الثانية، نظير الوضع الاستعماري وما خلفه من هيمنة وتبعيّة طالت كل المجالات والمؤسسات، فجاءت هذه النظرية لتخلص تلك المجتمعات من الأحادية الأيديولوجية، وتعيد قراءتها في ظل رد الاعتبار للهامش وفك عقدة المركز. وقد وجد هذا المصطلح جدلا واسعا وهذا راجع لطبيعة الاستعمار نفسها، فقد اعتبر **بيل أشكروفت** ما بعد الكولونيالية «كل ثقافة تأثرت بالعمليّة الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا الحالي»[2]، كما ذكر كريس باركر في معجم الدراسات الثقافية إلى أنّها «**نظرية** نقديّة تعالج الظرف ما بعد الاستعماري؛ بمعنى دراسة العلاقات الاستعمارية وأهم نتائجها»[3] فكلا التعريفين يصبان في واد واحد وهو أنّها ترتبط بأثر الاستعمار على المستعمرات وفي شتى الميادين أثناء وبعد الاستعمار.

كما يعرفها الناقدان سعد البازغي وميجان الرويلي بكونها «**نوع** آخر من التحليل ينطلق من فرضية أنّ الاستعمار التقليدي قد انتهى وأنّ مرحلة من الهيمنة قد حلت وخلقت ظروفا مختلفة تستدعي تحليلا من

نوع معيّن»[4]، كما يضيف كريس باركر بأنها «تستكشف الخطاب ما بعد الاستعماري ومواقع الذات الخاصة به فيما يتعلق بمواضيع العرق، الأمة، الذاتية، السلطة، التابع، الهجنة، الكريولية»[5]. وما إن أردنا التعرف على مصطلح ما بعد الكولونيالية لا نستطيع التغافل عن الأبوين الروحيين لها وهما فرانز فانون وإدوارد سعيد، حيث «تجسد ذلك أساسا في كتابه "جلدة سوداء وأقنعة بيضاء" حين انتقد بشدة العنصرية الأوروبية التي بثّتها أقطاب أوروبا وسط الشعوب المستعمرة وقام بتعرية خطابات الإمبريالية التي كانت مناقضة لمبادئ أوروبا الداعية إلى احترام الإنسان وتمجيده.»[6] . كما نجد أنّ إدوارد سعيد قد تحدث في هذا الصدد في "كتابة الاستشراق" «أنّ الشرق كان شيئا من اختلاق الخطاب الغربي، وهو الخطاب الذي صاغ من الوجود الحقيقي والمتخيل لشعوب الشرق، صورة خاصة متخيلة فانتازية إلى بعيد.»[7] وبذلك فما بعد الكولونيالية« لا تعني مخاصمة الكولونيالية وإنّما تعني الوعي بالثقافات الأخرى بالهويات والاتجاهات والكتابات التي أريد لها أن تندثر، أو تنطمس لتعود ثانية إلى الظهور بصفتها الأخرى، أي على أساس أنها (كتابات الرد القادمة) من المستعمرات حاملة معها هويتها وتنقيباتها في خطاب المركز.»[8] طالت الدراسات الاستشراقية الإمبريالية الشعوب المستعمَرة، وحطت من قيمته وشوهت مكوناته، وطمست تاريخه الحضاري وجعلت من السرديات مسرحا له وفي مقدمتها الرواية، وبما أنّ لكل فعل ردة فعل، فقد ظهر الخطاب السردي العربي وخاصة الذي كتب بلغة المستعمِر مناهضا لتلك الصورة وقد سماه إدوارد سعيد " السرد المضاد" الذي استطاع قراءة التاريخ الاستعماري وتفكيك استعلائيته، وقد كان من الكتاب الذين أبدعوا في هذا المجال " آسيا جبار" من خلال أعمالها الثرية والدسمة في هذا الموضوع، ومن بينها رواية بوابة الذكريات؛ التي استطاعت من خلال متخيلها السردي الوقوف على الكثير من القضايا ما بعد الكولونيالية: كالبطريكية، والنسوية، والهيمنة، والمركز والهامش، والاندماج، والاغتراب وبالتالي الكشف عن أبعاده ما بعد الكولونيالية، وهذا ما نستشفه من خلال هذه المقاربة.

ثانيًا: سلطة الشخصية (من النظام السلطوي إلى التمرد النسوي):

1- الأنا ضد الآخر السلطوي (ثنائي القطب):

استطاعت رواية بوابة الذكريات من خلال الشخصيات أن تنقل إلينا الأبعاد السلطوية في علاقة الأنا بالآخر؛ من خلال تحديد ملامحها والوقوف على مضمراتها.

أ-السلطة الأبوية وهيمنة الذكورة:

بداية بشخصية الأب، التي كانت تمثل "الأنا الآخر" الذي كان محكومًا بقانون الأجداد، وما يحمله من ترسبات ثقافية بقيت مرتبطة برؤية الرجل للأنثى كغائب، مقابل حضور الرجل، وأي انفلات عن هذا النسق يشكل خرقا، وبذلك حضور شخصية الأب اتجاه ابنته وزوجته مشبع بتلك السلطة، وخاصة فيما تعلق بالجسد، وهذه النظرة الفردية تختزل المنظور الجمعي للمجتمع الذكوري، فنقرأ في الرواية موقف الأب مع الزوجة التي كانت خاضعة لسلطته، فلا كلام يعلو فوق كلامه، فهي لا تشارك في مواضيع تتعلق بأبنائها وأسرتها وقد ظهر ذلك جليا في حادثة ركوب الدراجة عندما التزمت الأم الصمت « ثم يصرخ وكأنّ الجملة التي ينطق بها كان يحملها منذ دخوله الفناء: لا أريد، كلّا لا أريد . كرّرها عاليا لأمي التي هرعت صامته هي

الأخرى»[9] ثمّ تضيف « ثمّ دونما انتظار، التحق بغرفتها، التي حين يكون موجودًا بها، تصبح مكان الزوج الذي لا يدنّس»[10] الروائية من خلال هذا توضح أنّ الأب لا يتبادل الأدوار مع زجته وما صمتها إلا دليل على ذلك؛ فالصمت ليست دائما علامة تدل على الرضا، ولكن قد تدل على الخضوع والاستلاب، فهذا النظام لم يقتصر على فضاء الأسرة والبيت، بل أخذت بُعدًا أوسع وهو المجتمع في قولها « هذا الزوج المتصلب وهو الذي يضطلع بدور الزوج الحامي، الابن الذي ولد فقيرًا، ثمّ أصبح يعول أمه وأخته ودور الأب؟ إنّه يتبدى في هذا الدور تحديدًا. .....يصبح ثانية رغما عنه أو دون علمه، «حارس الحريم». »[11] وهذا ما ينطبق على كل زوج جزائري، فقد كانت أم طاهر تخضع لسلطة أبيه، وما يمارسه الأزواج من تقنيع وحجب لأجساد نسائهم وبناتهم، هذا الجسد الذي كان ولازال يشكل عقدة للرجل الشرقي؛ فأب فاطمة وأب فريدة وغيرهم من الآباء.. رغم تعلّمهم وتقلدهم مناصب في المدارس والمؤسسات الفرنسية وتأثرهم بطريقة عيشهم وأكلهم، إلا أنّه بقي عقدتهم الأبدية إن لم نقل العقدة الوحيدة لأن في نظرهم مرتبطة بموضوع أخلاقي وديني وهذه النقطة أكدتها حادثة الدراجة وانكشاف ساق فاطمة مع المعمر موريس رغم صغر سنّها وانفعال الأب في هذه اللحظة التي قال فيها:« لا أريد، كلّا لا أريد ـ كرّرها عاليا لأمي التي هرعت صامته هي الأخرى ـ لا أريد أن تظهر ابنتي ساقيها وهي تركب الدرّاجة!»[12] هذه الكلمة شكلت شرخا في فهم جسدها، كما كان للنظام السلطوي الذكوري تأثير آخر تمثل في علاقة الحب التي جمعتها مع زميلها طارق والموقف الذي حدث لها بمعيّة منيرة التي كانت تستلطف فيه طارق في أحد الجلسات وأخذه من يده، فغضب وأراد منها إحضارها «تذهبين وهذا أمر، قال ذلك بصوت خافت مهتز، تعودين إلى صديقتك وتحضرينها و...»[13] فكلمة "أمر" جعلتها تنفر منه وتستحضر صوت الأب الذي يعشش داخلها، في قولها: « لو أصدر الرّب وأبي نفسه هذا الأمر فلن أكون بحاجة إلى قول لا.»[14] هذا الأب الذي أعطاها حريّة الدراسة والتجول والسفر وحيدة من مكان إقامتها إلى المدرسة، يتحول ويعود إلى محكمته في مسألة الشرف والجسد وهذا ما يعاودها في كل مرة تريد فيها مسك أو تقبيل طارق، حيث أنّ محافظة الابنة على العرض مسألة حياة أو موت حتى أنه اقترن خرقه بالانتحار في ثنايا الرواية لو عرف أباها بذلك تقول:« إن علم أبي بذلك سأنتحر!»[15] وتقول أيضا:« ستواصل البحث عن ارتياد الفضاء الحر والتّحول وتوسيع الآفاق، حينئذ لم يتسنّ لها القيام بذلك إلّا بعيدا عن أنظار الأب. أتخشى محكمته؟ لا، بل بالأحرى الشكوك التي تعتريه حول نزاهتها وعذريتها»[16] فالأب يمثل شخصية متناقضة حيث أعطى فاطمة الحريّة وأدخلها إلى عالم الفرنسيين حيث خالطت فيه أصحاب الفكر الحداثي من خلال المدرسة والمقهى، ولكن في نفس الوقت لم يتخل عن المبادئ والقيم التي ورثها عن أجداده وهذا ما تميزت به الشخصية الاندماجية في تلك الفترة، التي تأثرت بالحضارة الاستعمارية الوافدة وأخذتها في قوالب جاهزة فآمنت بمؤسساتها وتعليمها، لكن لم تتخط فكرة الجسد وأخذتها بحذر وهذا ما جعل الأنا تعيش نوعا من الانشطار، وبذلك عاشت الذات الأنثوية إنسانًا بلا جسد، هذا المنطق جعلها تفقد إلى جانب جسدها روحها كامرأة، ومن هنا أرادت الكاتبة هدم فكرة أن الجنسوية التي يتفوق فيها الذكر على الأنثى، منطلقة من فكرة الجندر الرامية إلى تصحيح هذه الفكرة ـ وهي المساواة بين الرجل والمرأة ـ وبذلك أخرجت الأب من صفته البيولوجية الحقيقية لفاطمة إلى أب متخيل وهو الرجل الشرقي.

ب-الأنا والنظام السلطوي الكولونيالي:

تعد السلطة الاستعمارية بكل مكوناتها وأهدافها طرفا آخر في النظام السلطوي الذي تشكل في هذه الرواية عن طريق لوثة الاحتقار والعنصرية التي تميّز بها الاستعمار الفرنسي معتبرا نفسة سيدا على العالم، وكلّ ما دونه دون، متعاليا بكعبه على شعوب المستعمرات، وقد تمثل في شخصيّة " المديرة" التي كانت عنصرية في تعاملها مع " فاطمة" وبقية الفتيات الأهليات فقد كانت تكره كلّ ما هو عربي، وقد بدأت ذلك من خلال منع فاطمة من تعلم اللغة العربيّة، داخل المدرسة ورفضت جلب أستاذ عربية تقول:« «عندهم» هناك حيث تم رفض استقدام أستاذ العربية « لي وحدي» « من أجلك فقط! التلميذة الوحيدة!» صرخت المديرة من شدّة الاستنكار»[17] شكل المنع اللغوي من طرف المديرة صدمة لدى فاطمة، وأصبحت تتلقى الدّروس جبرا لا اختيارًا باللغة الفرنسية، وإلى أشعار بودلير وغيره بدل التطرق إلى الشعراء والنصوص العربية، حيث فرضت المديرة تسلطها وصرامتها على الأهليات مع ترك حريّة الاختيار للأوربيات في تعلم ما يحنو لهنّ في قولها: « ولكن كيف السبيل إلى فهم كون زميلاتي المكنيات «الأوروبيات» رغم ميلادهنّ في البلد مثلي، كنّ جاهزات لتعلم جميع لغات العالم، بما فيها اللغات الموصوفة بـ « الميته»»[18]؛ فالمديرة جاءت ببعد استعماري جاء لمحاربة الهوية الوطنية وفي مقدمتها اللغة العربية، وتكريس لغة المستعمِر ووضعها على الهامش واختصارها وتضييق دائرتها بحسبانها لغة الأهالي « شددت على الصفة، وكأنّها تشك في إمكانية وجود مستوى آخر من هذه اللغة لـ «الأهالي»»[19]، كما طال هذا التسلط والاحتقار إلى حد الأكل؛ فقد كانت المديرة تميز بين الأهليات والأوربيات في الوجبات في قولها:« في كلّ مرة تقدم لنا بيضتان وعصيدة. في حين أن للفرنسيات الحق في اللحم!»[20] ، فقد كن محرومات من الأطعمة التي يردنها على عكس الأوربيات اللواتي يتمتعن بكل الامتيازات

كما نجد إضافة إلى ذلك السيدة " د " أستاذة البيانو الديكتاتورية المثبطة التي كانت تزدري وتسيئ لفظيا وماديا لفاطمة عندما كانت تتعلم العزف على البيانو حيث تقول: «أستاذة البيانو التي راحت تعنفني سريعا مضاعفة الملاحظات اللاذعة حول أصابعي «الطويلة جدا لكنّها متخذرة وخرقاء» ..... هذه السيدة أصبحت مثبطة للعزائم أكثر فأكثر»[21] وتقول: «راحت تضرب بعصاها على أصابعي التي لم تكن مُنْثَنِية بما يكفي ..... يبدو لي أنّ هذه السيّدة الجافة الفظة ظلت تلقنني الموسيقى مدة ثلاث سنوات على الأقل. في السنة الأخيرة، تضاعف الفشل في نفسي جراء نزعتها العدوانية»[22] فالعنصرية عند السيدة "د" طفرة جينية متوارثة من الجنس الأوربي الذي ينظر للآخرين بعين الاحتقار والدونية، وما تسمية هذه السيدة بالرمز "د" إلّا إحالة إلى الدكتاتورية، أو نقضا وتفكيكا لمصطلح الديمقراطية الذي تنادي إليه الإمبراطوريات الأوربية.

كما شكل ولي التلميذ الفرنسي أحد أشكال السلطة، ويعد نفسه متفوقا على الآخرين من الأهالي، حتى لو كانوا يظهرون ولاء لهم، وهذا ما حدث مع المعلّم طاهر رغم إيجاده وطلاقته في الحوار بالفرنسية، ومكانته بين المعلمين إلّا أنه كان يعامل بطريقة غير لائقة، معاملة تنم على تأكيد عنصرية الفرنسيين وحقدهم على كل ما هو عربي، وهذا في حادثة المعلم طاهر مع التلميذ الفرنسي، أين خاطب الولي المعلم بطريقة فضة وغير محترمة قائلًا «أنت هناك قد أبكيت ابني؟.... أنت هناك ردّ أبي سريعا من تخاطب في نظرك .... انتفض أب

الطفل وقال لأبي بفرنسيّة شعبية للغاية... أتتجرأ»[23]. وهذه المعاملة لا تختلف عن معاملة بقية المعمرين للأهالي، التي تحمل احتقارا بدء بتقسيمهم الشواطئ ومنعها عن الجزائريين« في الشاطئ الكبير على مشارف شرشال قوس الرمال الجزء المخصص حصريا للأوروبيين جميع اللافتات تحمل عبارة ممنوع على العرب.»[24] إضافة إلى استحقار الأهالي والسخرية منهم ومن عاداتهم وتقاليدهم وهذا ما حدث في القرية الاستعمارية . التي يتقاسم فيها المعلمون و الأهالي نفس المكان مع المعمرين الفرنسيين . وما تعرضوا له من مضايقات وازدراء باعتبارهم متوحشين وبربر متخلفين في قولها: « في كلّ حفلة من حفلاتنا، تعتقد الفرنسيات القاطنات في عمارتنا بأننا متوحشات!»[25] وازدرائهم من الزغاريت وتشبيهها بصياح الهنود. وأفلام الوسترن الأمريكية.[26] وبذلك شكلت هذه الشخصيات مجتمعة مثالا حيّا للسلطة الاستعمارية، التي سعت إلى جانب الاحتلال الجغرافي للجزائر، أيضا طمس مقوماتها الثقافية وإخضاعها للثقافة الفرنسية بداعي إدخال الحضارة على الأهالي، وإخراجهم من غياهب الجهل بنظرة فيها من التعالي والفوقية الغربية التي تعتبر نفسها متفوقة ولا تقبل الغلبة إلا لها.

وبهذا شكلت السلطتان الأبوية والاستعمارية وجهين لعملة واحدة؛ فكلاهما مَثَّلَ عاملا سلبيا؛ فالأول حدّ من الفكر وجعله ثابتا رجعيا لا متغيرا وساهم في تكبيل المرأة وحدّ من حريتها ومحاسبتها وحافظ على ضمير جمعي أحدث هوة داخل الأنا، وسلطة استعمارية مشبعة بالعنصرية الإمبريالية المتعالية التي قسمت الأهداف والجماعات وحدّت من حرية الجزائريين في بلدهم وعلى أرضهم، ومنعتهم من الاستمتاع بأبسط حقوقهم إن لم نقل المطالبة بها!

فاجتمعت السلطتين على توفير كل شيء، ونزع كل شيء؛ فالأب سمح لها بالتعليم ودخول المدرسة والإقامة خارج البيت ونزع عنها حرية الجسد والاعتراف بها كجنس مختلف متساو معه في الحقوق. وبذلك جعل الذات بلا جسد، والاستعمار الذي بنى المدارس وعلّم الأطفال وأدخل المؤسسات وطور الحياة الاجتماعية إلا أنه سلب هويتها وهجنها وذلك ولد شعور عدم الانتماء إلا أنهما اختلافا في كون النظام الأبوي كان من المؤسسات التي لم تنصهر كليا في النظام الغربي رغم تأثرها بها في بعض الأمور؛ فحافظت على القيم والمبادئ التي تربت عليها وورثتها، في حين كان فيه النظام السلطوي الاستعماري يلبس قناع التطور والانفتاح والتقدم في ظاهره، خافيا في باطنه أهداف سطرها مسبقا وهو سلب الهوية الجزائرية وجعل الجزائر مقاطعة فرنسية اقتصاديا وسياسيا ودينيا وفكريا.

ج-الأنا وأثر التمرد النسوي:

الإنسان بطبعه اجتماعي يؤثر ويتأثر بالآخر، وقد حفلت رواية الذكريات بالكثير من الشخصيات التي أثرت في تكوين الأنا، وقادتها إلى التمرد ومن بينهم صديقتها في المؤسسة الداخلية "ماق" التي شكلت نقطة لبداية تحررها وانعتاقها، حيث التهمت معها الكتب وتغذت بالفكر الغربي الأوروبي، حيث أخرجت فاطمة من عالم ضيق إلى عالم أوسع وجديد وانفتاحها حيث تقول« تغير كل شيء بالنسبة إلي بفضل لقائي بماق والكتب التي كنا نلتهمها معا خلال ساعات الدراسة»[27] هاته الكتب التي كانت تحمل ثقافة وفكرا أوروبيا كاثولوكيا، وكتبًا هدامة لم تكن مدرجة ضمن البرنامج الدراسي، فشكلت خرقا لما تلقته من قبل عن طريق

الحجب الأبوي الفكري، حيث وصفت هذه الكتب « "الكتب الحقيقية" مصدر نشوة بل مصدر تحوّل»[28]، وكأن ماق كانت تلك الفجوة التي استطاعت من خلالها خلع الطاعة وأخذها إلى مساحة الحريّة التي كانت تفتقدها في البيت والقرية، إضافة إلى ذلك ساهمت في خروجها عن بعض القيم الدينية والإسلامية، وسلطة الأب فقد قادتها إلى شرب الخمر والذهاب إلى السينما حيث تقول: « مع ماق المتواطئة معي، عرفت منذ سن الثالثة عشرة فلتاتي الأولى رغم خشيتي القسوة الأبوية واحترام العقد الضمني»[29]، فقد عاشت الكثير من الانفلاتات معها تقول في هذا الصدد: « كانت تطالبني بأن ألبي جميع رغباتي المخفيّة... أخيرا خلصت إلى الاعتراف برغبتي في تذوق ...(البابا بالروم!) لم لا؟ وسذاجة الأطفال، أضفت بأن رائحة الروم تجتذبني هكذا في سن الثالثة عشرة رحت انتهك نواهي القرآن الكريم »[30]؛ وبذلك شكلت ماق عاملا في تحرر الأنا وانفتاحها على العوالم الأوروبية، ومخالفة تعاليم الدين الإسلامي بشرب الخمر وترك الصلاة نهائيا بعد أن كانت تؤدي بعضا منها في المنظومة الحمائية والتي في نظرها تفرض هذه السلطة وتفرض معتقداتها الجماعيّة وبالتالي مثلت ماق في علاقتها مع الأنا تعارضا مع الماضي الموروث، وصراع الذات مع الأنا المركز؛ فكان تمردًا على الدين والعادات والتقاليد في قولها: « "يحيا الروم! " كانت تقول ساخرة، بعد أن جعلتني أخترق الشعائر الإسلامية. كنت أقول في قرارة نفسي بأنّ هذه الخطيئة الطفيفة ليست مخالفة قط لانتمائي الديني: بما أنني لم أكن أؤدي صلاتي خمس مرات في اليوم»[31]، وبذلك فتحت لها الباب للانفتاح على الحداثة الغربية وإعادة النظر في الفكر الإسلامي وكسر المحظور والمسكوت عنه في ظل مجتمع بطرياكي.

هذا التمرد يظهر كذلك مع صديقتها "جاكلين" التي كانت صديقة الخرق الجسدي وعلاقات الحب والمداعبات في أيام المراهقة والتي أبدت فاطمة إعجابا شديدًا بها من خلال مظهرها «ترتدي في الأسفل المرئي من جسدها أجمل الألبسة: تحتفظ بمظهر السيّدة الصغيرة، لا تبتسم ولكنها تظهر الثقة بالنّفس وراحة المرأة! أشعر بالإعجاب نحوها.»[32]، كانت تطنب في الحديث عن علاقاتها الغرامية رفقة الشاب على شواطئ البحر. وأمام مرأى والديها دون خجل تقول: «في كل مساء عند مجيء الخريف، كانت تتحدث بإطناب عن غرامياتها الأولى وهي مفعمة بالحرية التي تمتعت بها خلال عطلتها على شاطئ البحر، كانت تسميها مداعبات.... كانت تصف عالما ذا طبائع غريبة جدا تحت أنظار أمها الشابة، أو أخ متغطرس»[33] وهنا عقدت مقارنة بينها وبين جاكلين حتى استحضرت صورة الأب وكلام النساء باعتبار النساء الفرنسيات غير عفيفات في قولها: «إن الفرنسيات في ديارهن لا يتحلين بالعفة!»[34] ، وقد تحقق الحوار الذي دار بينها وبين جاكلين ؛ وذلك من خلال الفلتات التي قامت بها مع أصدقائها بالتردد على الحانة حيث تقول: في طريقي إلى غاية الحانة، كان مزاجي رائقا... أصل إلى الحانة منهوكة دقائق بعد طارق..»[35] ودخولها إلى عالم الحب والعلاقات حيث كانت منيرة آصرة بينها وبين هذا الحب، ودخولها في علاقة مع علي، ثم مع طارق وقد شكلت هذه النقطة شحنة مركزة لتمرد فاطمة على المنع الأبوي والمؤسسة العرفية حيث هذا الشاب جعلها تعيد التفكير في جسدها لما حدث بينهم من قبل ولمس «بالنظر إلى ما كنت أعتقده "خطيئة"، بدءًا بالقبلة الأولى التي منحت تحت الشجرة وتحت المطر...»[36]؛ فالراوية أرادت أن تقول بأن الأوروبيات يمارسن كامل حريتهن اتجاه أجسادهن مع الرجل الغربي، فليس هناك ما يمنعهن فالرجل الغربي في نظرها تصالح مع الجسد ومع تحرر المرأة، وبذلك تحررت

المرأة الغربية، وهذا ما جعل البطلة وغيرها من الزميلات كفريدة يتأثرن ويتمردن على فكرة الجسد، هذا التمرد طال اللباس داخل الأعراس والأفراح في الجزائر، فأصبحت تلبس لباسا فاضحا ومكشوفا بعدما كانت تلتزم بما تلبسه النسوة من لباس محترم بين بعضهن البعض احتشاما وتقديرا للقيم، إلا أن فاطمة تخلت عن هذه الفكرة وانبهرت بكل ما هو غربي حتى في طريقة اللباس، ضاربة الأعراف المنافقة حسبها عرض الحائط نذكر في هذا الصدد قولها: «فستان وأي فستان، فستان مقور مكشوف الرقبة والكتفين مع قميص فضفاض.....ارتداء فستان مع ظهر وكتفين مكشوفين ولكن ليس في الخارج.... حين تتقدمين في الشارع دون الحايك ودون وشاح على الشعر، ودون أن تغطي الجسم كلّه ما عدا العينين، فإن ذلك يعني بالنسبة إليهم السير عارية!»[37] وهنا معارضة كبيرة للعرف، وخروجها سافرة دون الحايك عند السير في الشوارع حتى أنها تعتبر عند الرجل العربي إذا لم تتحدث بالعربية «كنت أود أنا المرتدية تنورة قصيرة، أن أعنف جميع ذكور عشيرتي: أنا من عندكم! أنا مثلكم!»[38]

لتأتي فريدة مثال آخر للتمرد، التمرد على مدرسة الأجداد وحرس الحريم، الفتاة التي تقاسمت معها التعلم في المدرسة والتي فرضت عليها الأعراف أن تحجب جسدها بالحايك وجوارب الصوف ولكن فريدة انتفضت لذلك وتمردت من خلال التخلي عنه مؤقتا داخل أسوار المدرسة الاستعمارية، وكذلك بتعلمها وتمسكها بالدراسة فهي رأت في ذلك بصيص أمل لخروجها من شرنقة الأجداد تقول:« لقد روي كذلك كيف كانت تؤثر، عند وصولها في الصباح الباكر، المرور بقاعات الانتظار حيث كانت البوابة تخصص لها زاوية كي تتخلص من هذا الحايك الذي يضاف إليه حذاء ثقيل وجوارب صوفية، ثم كان عليها أن تسوي شعرها»[39] وقولها:« حين تتأهب للدخول إلى الدروس: الآن فهمت، والآن فهمتها..... توالت السنوات بعد ذلك من أجل الدراسة والمعرفة وكذلك من أجل التقدم الحر في الخارج، والجسد المكشوف ذات يوم!»[40] فهي استطاعت أن تحصل على حرية جسدها بتخلصها من الحايك، وحرية الفكر بنهم الكتب خاصة الفلسفية، والتعلم والتفوق في الدراسة وقد قامت في العديد من المرات بإضراب عن الطعام مما عرض صحتها للخطر[41]، لتثبت كفاحها وتصل إلى التحرر الذي وصلت له، هذا التحرر أوصلها إلى إكمال دراستها في أوروبا، وبهذا مثلت مثال للمرأة المتمردة التي نالت حريتها بخروجها عن القبيلة، والتحصيل العلمي والفكري الأوروبي الذي قدمه لها المستعمِر.

فإذا كانت فريدة ثورة على التقاليد، فقد مثلت مسعودة مثالًا للتمرد من أجل التحرر، فهي تمثل الثورة داخل المدرسة و خارجها بالكلمة أو بالجهاد في الجبال، فبدأت ثورتها بالدفاع عن حقوقها وحقوق زميلاتها فقادت حملات احتجاجية وكان ذلك من خلال استنكار الميز العنصري الذي فرض عليهن خلال وجبة الطعام؛ التي كانت وجبة متكاملة بالنسبة للأوروبي (المسيحيات)، وعادية بالنسبة للأهليات (المسلمات) تقول: «وفي كل مرة تقدم لنا بيضتان وعصيدة في حين أن للفرنسيات الحق في اللحم!»[42] لتقود الإضراب «تقرر الإضراب....يبدو لي أن مسعودة...هي التي نشطت هذا الإضراب ذكرتنا بأن عدة مطالب سبق أن عرضت على الناظرة وأننا بتنظيم هذا الإضراب ما علينا إلا أن نطلب . صححت: نطالب . بمحاورة المديرة شخصيا»[43]وهذا الاحتجاج لم يكن وحده سمة لتمرد مسعودة بل كانت مثالًا للمرأة الثورية المتمسكة بقضيتها الوطنية حيث

جعلت للمرأة صوتا صارخا وصادعا، للعدو في الجبال بالمشاركة في الثورة، مناضلة بصفوف التحرير« يبدو لي أن مسعودة التي صعدت فيما بعد الجبل بوصفها ممرضة واستشهدت»[44] وبذلك شكلت مسعودة أيقونة للتمرد والتحرر ضد سلطة المستعمِر الغاشم، وتبنت لسان حال الثورة أن ذاك.

وبذلك اتفقت الشخصيات المتمردة التي ذكرناها على نقطة تأثير واضحة وهو ايصال صوت المرأة والدفاع عن حقوقها، والتركيز على وضعها وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل.

شكلت لهجة التمرد من خلال الشخصيات، ثورة نسوية ضد مستعمِر آخر وهو الرجل، كما اتفقت الشخصيات المتمردة في هدم السلطان والقيد الاستعماري (داخليا وخارجيا).

لكن اختلفت هذه الشخصيات؛ فارتبط تمرد مسعودة بالقضية الوطنية والحفاظ على الهوية الوطنية والدفاع عن وحدة ترابها. فيما شكلت فريدة تلك الشخصية المتمردة التي تماهت داخل ثقافة الغرب ولبست ثوبها، تاركة العادات والتقاليد والقيم الإسلامية خلفها، فشكل تحررها تحررا للذات انتقاما من الأنا الآخر (إثبات وجود).

أما شخصيات ماق وجاكلين فقد لبست قناع البراءة في ظاهرها بإحداث تطور وانفتاح للفكر لكن تحمل في باطنها نيّة تمييه الأنا في الثقافة والفكر الغربي بكل حمولاته.

ثالثًا: تفكيك مركزية الفضاء:

يشكل الفضاء داخل الرواية حيزا مهما، لأنه يخضع لتنظيم معين، تحدده علاقة الشخصيات بالمكان والزمان، وما يحمله من دلالات ورموز تثير حفيظة المتلقي وتفتح عليه باب التأويل، والفضاء في رواية "بوابة الذكريات" مرتبط بالفترة الاستعمارية للجزائر وما بعدها، وما حمله من أساليب قمعية ظاهرة وباطنة؛ استهدافا للهوية الجزائرية وتحقيرا لكل ما هو جزائري في جميع النواحي والمجالات، مما شكل بثقله هذا مركزا ، في مقابل ذلك مثلت الجزائر هامشا، ولكن قد ينقلب الدور ويصبح الهامش مركزا كونه يطمح إلى استعادة مكانته وبهذا فالمركزية في رواية " بوابة الذكريات" مزدوجة بين طرفين مستعمَر ومستعمِر؛ وذلك من فضاءات ثلاث: وهي المدرسة الداخلية، والمقاهي والحانات، والمدينة (باريس).

أ-المدرسة الداخلية:

لقد مثل فضاء المدرسة الداخلية، جانبا آخر من جوانب الصراع بين الأنا والآخر لغويا وثقافيا ودينيا، فهي فخ نصبته فرنسا لطمس هوية الجزائريين (فاطمة وزميلاتها)، وشاهدا على تيار المقاومة الثورية الذي شكل صحوة لدى أبناء الجزائر الذين شاركوا في الثورة الفرنسية، وانخرطوا في مؤسساتها، وعلموا أبناءهم في مدارسها، وقد تمثل ذلك من خلال موقف أب فاطمة من الجائزة التي تلقتها ابنته في المدرسة المتمثلة في كتاب يحمل صورة للمارشال بيتان، ووقوفها أيضا لتحية العلم الوطني ذي الثلاثة ألوان وإنشاد لبيك يا مارشال![45] ، وكذلك الأمر بالنسبة لفريدة التي كانت تدرس في الداخلية تقول:« وصلت فريدة المنتمية إلى النظام نصف الداخلي إلى الإعدادية وهي مغطاة من رأسها إلى أخمص قدميها بالحايك الأبيض التقليدي قيل لي بأنها: الابنة الوحيدة لضابط في الجيش الفرنسي، وربما بنت مقدم رتبة استثنائية آنذاك بالنسبة إلى مسلم»[46]، حيث كانت عند دخولها إلى المدرسة تتخلص من الحايك:« كانت البوابة تخصص لها زاوية كي

تتخلص من هذا الحايك....»[47] وبهذا فإن الاستعمار وضع المدرسة الداخلية كفضاء كولونياليا يتم من خلاله استدراج الأطفال الجزائريين وتدجين هويتهم وفق أهوائهم الاستعمارية فكان أول منطلقات هذا المخطط هو تهديم مداركهم العائلية وما تحمله من قيم ومبادئ دينية، وما تربت عليه من عادات وتقاليد، وتهميشا لغويا بإعطائهم فسحة من الحريّة والتمرد لتحقيق مآربها.

ففي فضاء المدرسة الداخلية عاشت فاطمة جو المقارنة من خلال تذمرها من معاملة أبيها مقارنة بالرجل الغربي «في الواقع لم يمنع عليا ذلك بشكل صريح، ولكن أبي أمام الأخرين لا يحني أبدا هامته كي تتمكن ابنته من تقبيله كما يفعل عصفور البرقش أو القبرة، ما همّ: فهذا التفاخر قد يعدّ أمرا مشينا وطريقة لمحاكاة الطائفة الأخرى...»[48]؛ فشكلت الأسرة أولى العتبات في الهدم، انطلاقا من صرامة الأب باعتباره رجلا شرقيا يحمل قيما من المحظورات، لتجد في حضن أمها تعويضا واسترجاعا لما هو طبيعي[49]، غير أن هذا الحب عشش بلوثة تأنيب الضمير إزاء عدم تحقيق حلم والدتها بتعلم العزف على البيانو، الذي كانت الأستاذة في المدرسة الداخلية سببا في كسر هذا الحلم.

هذا الحرمان الأبوي النابع من المجتمع الذكوري الشرقي انتقمت منه بتزكية من فضاء المدرسة الداخلية بمخالفة بعضا من مبادئ تعاليم الدين الإسلامي ، وخرقا لنظام الأبوة باعتبار هذا الفضاء مسرحا للحريّة « بعد الحصول على الأهلية أو الباكالوريا لن يقوى الأب أو الأخ البكر على إجبارهن على الزواج من أحد الأقارب، بل سيحظين بالدراسة فيما بعد بالجامعة ثم ممارسة مهنة ما؛ إنّه الاستقلال أخيرا كنّ في سن الثالثة عشرة تقريبا يتبادلن الحديث عن المستقبل القريب...»[50] كما كان لفضاء المدرسة الداخلية تأثير وتمثل في اختراق المحظورات بتواطئ مع "ماق" فارتادت الذهاب إلى «قاعة سينيما كبرى اسمها الأمير... في هذه القاعات شاهدت أفلام الوسترن الأولى..»[51] كما أن هذا الفضاء الحر كان سببا في شرب الخمر ودخول عالم المسكرات« هذا في سن الثالثة عشرة رحت انتهك نواهي القرآن الكريم... هكذا أصبحت أتعاطى كل يوم سبت البابا بالروم تحت أنظار ماق.»[52] هذه الصديقة التي كانت فرحة بانتصارها في جعل فاطمة تكسر هذا المحظور لغايات استعمارية غايتها زعزعة الهوية« "يحيا الروم " كانت تقول بعد ما جعلتني اخترق الشعائر الإسلامية، كنت أقول في قرارة نفسي بأن هذه الخطيئة الطفيفة ليست مخالفة قط لانتمائي الديني بما أنني لم أكن أودي صلاتي خمس مرات في اليوم، فإن هذه الخروقات الغذائية تافهة وهذا لا يفسد قط صدقي إزاء أبي..»[53] ليحدث هذا الفضاء الاستعماري خلخلة في العقيدة الإيمانية لفاطمة؛ فبالإضافة إلى أنها تخترق شعائر إسلامية وتنتهك نواهي قرآنية' فهي تفعل ذلك خيفة من والدها، وخوفا من الوقوف بمحكمته متناسية الخوف من الله على قناعة صادقة منها، هذه القناعة الإيمانية اهتزت أيضا في هذا الفضاء من خلال حواراتها مع جاملين أين كانت تستحضر خوفها من الأب، ليشكل هذا الفضاء آصرة تربطها للولوج في علاقات الحب وانتهاك حرمة الجسد بنزع الحجاب من خلال الاحتكاك بالفتيات الأوروبيات وما يروينه عن علاقتهن بعالم الرجال« صوت آخر ردّ بداخلي: "أنت معجبة بجاكلين" .... أجل لقد قبلني ...طويلا! قالت يحدوها الحنين»[54] وقد تمثل ذلك في علاقة فاطمة بطارق« في طريقي إلى غاية الحانة كان مزاجي رائقا: لأول مرة أذهب للقاء طارق في انطلاقة من الحريّة المذهلة»[55]، وقبولها للقبل واللمس «كيف أخبره بأن جسدي

بكر(هوس مجتمعنا منذ قرون) وبأني لم أقبل إلا القبلات.»[56] ووصل هذا الخرق ليطول اللباس التقليدي الحايك باعتباره قناعا وحاجبا« ففي الداخلية بالكاد نتخلص نحن البنات أو شبه المراهقات من الوشاح والحايك وكل هذا القناع حيث إن المئزر الأزرق المفروض الذي هو بالنسبة للداخليات الأخريات بزّة محتملة بصعوبة، فإنه بالنسبة إلينا نحن المسلمات يظل على خلاف ذلك أمارة واعدة على تخليص جسمنا البالغ من الحايك»[57]؛ ففريدة أكثر الفتيات التي عانت في قضية الحجاب لصرامة أبيها إلا أنها تخلت عنه عندما تطأ قدمها فضاء المؤسسة، وهذا يعتبر انتصارا للمخططات الاستعمارية لمحاربة كل ما يمثل الهوية الوطنية« حين تنظم إلينا في الفناء صامتة ننسى بأنه في الصباح اجتاز طيفها الغارق في القماش الأبيض البوابة... وكان عليها أن تطويها آليا كي ترتديها ثانية في المساء قبل الخروج»[58]، فهذا الفضاء كشف النوايا الفرنسية التي تهدف إلى محق الهوية الوطنية وانعكس ذلك بتأثر الفتيات بالثقافة الفرنسية للخروج من بوتقة الأجداد التي مثلت السجن بالنسبة لهن، ولكن الآباء كانوا على دراية بالغاية الاستعمارية وهذا ما يؤكد امتعاضهم في العديد من المواقف، إلا أنه كان هدفهم تعليم بناتهن واشراكهن في عملية الوعي . هذا الوعي . تؤكد عليه شخصية مسعودة التي صنعها هذا الفضاء الاستعماري والتي تعتبر التيار الثوري المتمرد، التي بدأت اعتراضها على الكثير من القوانين داخل المدرسة وجراءتها على معارضة إدارة الداخلية حول وجبة الطعام الفاخرة المقدمة للأوربيات في عيد المسيح لتشكل انتصارا للداخليات في قول فاطمة: « يبدو لي أن مسعودة (التي صعدت فيما بعد إلى الجبل بوصفها ممرضة واستشهدت) هي التي نشطت الإضراب ذكرتنا بأن عدّة مطالب سبق وأن عرضت على الناظرة، وأننا بتنظيم هذا الإضراب ما علينا إلا أن نطلب . صححت . نطالب بمحاورة المديرة شخصيا»[59]من خلال هذا الموقف ربطت فاطمة هذا الموقف بما طالعته في كتاب أبيها عن الثورة الفرنسية، لتنصب مسعودة الفتاة الثائرة التي انخرطت في الحركة التحريرية وكانت إلى جانب الرجل في الجبل.

لنقف في فضاء الداخلية على كمية التحرر التي وصلت إليه المرأة الأوربية، فالرجل الغربي تجاوز المحظورات، فسهل على المرأة الأوروبية تحرير جسدها وهذا ما كان مغيبا في المجتمعات العربية.

ب-فضاء المقاهي والحانات:

يمثل كل من المقهى والحانات فضائين مهمين باعتبارهما موطن التجمعات لمختلف التصنيفات والطبقات، وما يتعلق بهما في الحياة الاجتماعية، وما يحملانه من دلالات رمزية. وقد أخذ هذان الفضاءان دلالات كثيرة في "بوابة الذكريات" كونهما تابعان لفضاء مستعمَر، مجسدة لنموذج الصراع بين الأنا والآخر، حيث شكل لها فسحة للتحرر وهذا ما صورته الراوية في خروجها خلسة مع صديقتها ماق إلى الحانات وتهكمها من تصرف أبيها حين حاول حمايتها كل ما مرّ بجانب الحانة تقول: « هكذا رفقة أبي وقد مسكني من يدي خلال أنوار الليل الأولى (مصابيح في الحانة المقابلة راحت تشتعل الواحدة تلو الأخرى) اجتاز مع أبي إذن الخمسين مترا التي تفصلني عن العمارة المخصصة لسلك المعلمين»[60] في حين تعيش اللهو، وتوهم أباها بعروبتها.

ما يؤكد ذلك في وقوف الروائية على الفرق بين المقاهي والحانات العربية، وكأنها لا تنتمي لهم، وهنا نلتمس ذلك التغير الذي طرأ عليها، وتأثرها بالطابع الأوروبي تقول: « فرجة العالم: إنها قرى اكتشفتها دون أن

أحل بها أبدا، وهذه الحشود من النّاس والأطفال المنقسمة إلى نوعين بل حتى إلى أماكن: المقاهي العربية المكتظة والصاخبة من جهة، وفي الرصيف الآخر أحيانا في وسط الضاحية أمام الساحة بكشكها، والعديد من الحانات الأوروبية بمرايا عالية جدا ترتقي إلى بداية القرن، وثريات تهرني»[61] في هذه الوقفة السردية عقدت مقارنة بين فضاء المقاهي والحانات بين الجزائريين والمستعمِرين، باعتبارهم ينعمون بحياة أفضل من حياة السكان الأصليين. لتعود في مقاطع أخرى وتتحدث عن انتمائها بلسان والدها بضمير الجمع "أهلنا" قائلة: « صمت على هذا العالم من القرى المجتازة وهذه الشوارع المأهولة بالرجال فقط المنقسمين دائما إلى مجموعتين، الأوربيين والآخرين، أو بالأحرى لا أقول لنفسي هاتين الكلمتين الأخيرتين لأن هؤلاء "الآخرين" هم في الواقع "أهلنا" أو "ذوونا" هكذا كان أبي يتحدث حين يخاطبني بالفرنسية بصدد "الأهالي" كما يسميهم»[62] وبهذا شكل المقهى رمزا للتحوّل، انتقالا من عوالم عربية بكل قيودها ومحظوراتها، إلى عالم أوروبي يبيح كل ممنوع؛ فتشكلت بهذا هوية مضطربة بين قناعاتها وأهوائها المتأثر بالثقافة الغربية، وبين ما تمليه عليها القبيلة والتي تذكرها في كل مرّة وهذا ما حدث لها في مقابلاتها مع حبيبها وصديقها رفقة منيرة في فضاء المقهى والحانة ليقف حائلا: « وإذا بي ألتقي بمنيرة عند الخروج. نزلنا معا الدرج الأكبر الذي يهيمن على الشارع حيث جلسنا أنا وطارق في مقهى خلال لقائنا الأول منذ سنة»[63] فضاء المقهى مثل لفاطمة كسرا لأحد قواعد المنع الذكوري وهي المساواة مع الرجل وانبهارها بالعالم الآخر وتقدّمه تقول: «في طريقي إلى غاية الحانة، كان مزاجي رائقا: لأول مرة، أذهب للقاء طارق في انطلاقة من الحرية. ..... بينما التفت طارق ليدفع المبلغ المستحق للنادل.... أخذت ذراع طارق على طريقة الزوجة الشرعية»[64] وكان ردة فعل جراء غيرتها من منيرة التي تترصد طارق، ردة الفعل هذه أراد طارق أن ترد بالاعتذار من طرفها اتجاه منيرة، فامتنعت في البداية لكن استسلمت لطلبه في النهاية.

هذا الفضاء الذي مثل بالنسبة لها خروجا عن المألوف وكسرا للفصل الجنسي الذي مورس بين الذكر والأنثى، وحقق لها حرية العيش بثقافة الأجنبي الأوروبي دون الانتقاد من طرف الأهالي إذا لم تتلفظ بالعربية. وهذا الاختلاف بين الثقافتين أحد غربة في ذاتها.

ج-فضاء المدينة (باريس):

عند قراءتنا للرواية وجدنا أن فضاء الآخر تمثل في مدينة باريس، التي شكلت سلطة المستعمِر وإدارته العليا التي تصدر الأوامر، ومن الفضاءات التي مارست باريس سطوتها عليها، المدرسة الداخلية المزدوجة بين الفرنسيين والجزائريين هذا الازدواج ساهم في طمس الهوية الوطنية، وما فريدة وفاطمة ومنيرة وبقية الطالبات الأهليات دليل على ذلك، تقول عن فريدة: «ها هي فريدة... تفلت مني! ستغادر الإعدادية وستبتعد عن البلد كي تدرس في مكان آخر..... في باريس!»[65] وهنا تكشف النية الاستعمارية المبيّة؛ وهو فرنسة كل ما هو جزائري لتطال هذه المرة الأشخاص بإرسالها إلى باريس فور تحولها ، لتصبح أداة في يد الإدارة تحمي بها مصالحها وتحقق لها مآربها في موطنها الأصلي، هذا التحوّل طال أيضا السيّد ساري الذي أصبح يحتل مكانة في السلطة الفرنسية؛ فمعرفته المسبقة بجدة فاطمة المتمردة من أبيها، فدخول فاطمة للمدرسة الداخلية أمر دبر له بالليل، لأن جدتها كانت تشكل خطرا لهم باعتبارها مقاومة ومناضلة ولذلك لا بد من أخذ الحذر

منهم؛ فتم اصطياد أبنائهم والتأثير في تكوين شخصياتهم وتوجيه قناعاتهم حسب ما يخدم مصالحها بتواطئ جزائري صادرا من فضاء باريسي تقول:« في يوم من الأيام وكان ذلك بباريس اقترب مني رجل في سن أبي وهو مدرس متقاعد مثل أبي.... خلص في النهاية إلى الإفضاء بما يلي: أتذكر جيدا جدة أبيك، هل تعلمين»[66] وتقول أيضا الكاتبة على لسانه: «كنت طفلا صغيرا في مدينتنا المشتركة يا سيدتي وهذه السيّدة أي جدة أبيك كانت تزورنا في بيتنا وكانت تفعل ذلك بوصفها جارة دون شك، إنها كائن أدهشني»[67]. فالرواية تملي من خلال فضاءاتها كيف يتم السيطرة على النماذج المستهدفة وزعزعتها في كل المجالات حتى يتم مسخ شخصية الفرد الجزائري ويجعله تائها في تحديد هويته، وهذا السؤال الحقيقي المطروح في الرواية من أنا في الأمكنة والشخوص؟ من أنا في البيت، في المدرسة، في القرية، في باريس، هذه الخلخلة تجسدت أيضا في علاقتها مع " ماق" صديقة الأدب والكتب، تلك الصداقة النابعة عن الحب والتعايش إلا أنها تغيرت عند الالتقاء في الفضاء الباريسي حيث تقول: «لقد كان اللقاء الأخير، بالنسبة إلى انبعاث لمراهقتنا في الفترة الاستعمارية. هل خلفت حرب الجزائر رغم كل شيء غموضا بيننا؟ بل حدودا غير مرئية.... هل كان في مقدور الحوار أن يتواصل؟ أتذكر بأنه كان عليها أن تعود إلى ليون، وبأنّها لا تحب باريس فقد حدثتني عن ذلك فيما مضى، يبدو أنه بعد لقاء 1968 هذا حيث بدت ماق مراوغة ولكن لم أتفطن لذلك إلا بعد فوات الأوان»[68] في هذا الفضاء تفطنت فاطمة إلى أن صداقتها مع ماق كانت خطة محبوكة ومدبرة مسبقا، مؤكدة على الصراع الأزلي بين الأنا (الجزائري) والآخر(الفرنسي).

هذه الفضاءات المركزية الثلاثة (المدرسة الداخلية، المقاهي والحانات، باريس) تنتمي إلى فضاء المدينة المستعمِرة، فجسدت قمة الصراع ما بعد الكولونيالي، فالإدارة في باريس، والتنفيذ في المدرسة الداخلية، ومسرح التّحول المقاهي والحانات بتواطئ جزائري فرنسي.

جميع الفضاءات كان حاضرا فيها صوت الأب والضمير الجمعي الذي يستقي منه قوانينه.

العنصرية وعدم المساواة حاضرة في كل الفضاءات والتفوق يكون دائما للفرنسي.

إلا أنّ هناك اختلافات؛ ففضاء باريس ارتبط بالبطلة قبل وبعد تحولها باعتبارها نموذجًا للهوية الهجينة وعيّنة من ضمن مجموعة وقعوا صيدا للشباك الاستعمارية. أما فضاء المدرسة الداخلية شكل المركزية بامتياز كونه كان ميدانًا لصراع الأنا مع الآخر، وشكّل صوتا للثورة والمقاومة.

فضاء المقاهي والحانات مثل مركزية الأنا الأنثى حيث الشخصية البطلة عاشت الحياة كما تريد. بتحررها، كما كان صوتا للمقاومة والثورة على لسان الفلاحين في المقاهي العربية.

1-الأبعاد ما بعد الكولونيالية في رواية بوابة الذكريات:

وعلى إثر ما تقدّم من خلال الشخصيات والفضاءات، والمقارنة المقدمة وصلنا إلى جملة من الأبعاد ما بعد الكولونيالية التي أضمرها المتخيل السردي من خلال عناصره التي ذكرناها سابقا:

كشفت الرواية على النظرة الاستعمارية القائمة على التعالي والعنصرية في تعاملها مع المستعمَرين واحتقاره للعنصر البشري الجزائري وإحقاق دونيته.

كشفت الروائية على نيّة السلطات الاستعمارية القائمة على طمس الثقافة الجزائرية وسلب الذوات انطلاقا من أهش طبقة وهي الأطفال وذلك بإدخال مؤثرات مفتعلة وجديدة على بيئته، مما تفتح عليه باب المقارنة وبذلك تستدرجه لتجريب كلّ ممنوع تحت مسمى الحرية المطلقة، وبذلك استطاعت الروائية من خلال متخيلها تفكيك المركزية الاستعمارية الأوروبية وقلب موازينها والوعي بخطورة الاستعمار وغاياته، الذي صنع لنفسه فئة قويّة من خلال فضاء المدرسة (أمثال فريدة) تحمي مصالحهم[69] ومستعدة لخدمتهم.

تفكيك مركزية السلطة الأبويّة والهيمنة الذكورية باعتبارها سببا وجيها في إحداث المقارنة بين الثقافتين: على مستوى الشخوص والفضاءات مما جعل الفتيات يحدثن قطيعة مع الأعراف التي تشكلت بداية من الأسرة لتنتقل إلى المجتمع.

شكلت الشخصيات المتمردة في المتخيل الروائي فضاء خاصا استطاعت من خلاله تسليط الضوء على قضية المرأة ـ باعتبار أن هذه الأخيرة ـ لها حقوق متساوية مع الرجل بفرض وجودها الإنساني وتحررها والذي لا يتحقق إلا بتحرر الرجل الجزائري (الشرقي) من القيود الاجتماعية.

وصلت الروائية من خلال متخيلها إلى طرح نسوي مفاده إحداث مقاربة بين التسلط الذكوري وسطوة استعمارية وتحميل هاذين المنظومتين العطب الذي طال الذات وتكوينها، تلك الذات التي لم تجدها لا في بيت أبيها ولا في باريس ولا في أي مكان.

خاتمة

نستنج في الختام أنّ رواية "بوابة الذكريات" من الروايات المناهضة للكولونيالية؛ فاستطاعت من خلال متخيلها تفكيك العديد من المركزيات الاستعمارية وفضحها وذلك من خلال استنطاق الذاكرة ومساءلة التاريخ بطرح العديد من المواضيع والقضايا ما بعد الكولونيالية (المستعمِر والمستعمَر، المركز والهامش، النسوية، البطريكية (السلطة الأبوية)، الهوية) في حدود علاقة الأنا بالآخر، فشكلت السلطة الاستعمارية بشخوصها وفضاءاتها باعتبارها عاملا هادما للهوية الثقافية للجزائريين وإبدالها بالهوية الفرنسية، مما أحدث شرخا في وعي الأنا فاضحة النهج الاستعماري والثقافة الغربية المتعالية العنصرية المغلقة رغم ما تنادي له من سماحة وتطور وانفتاح ، وهذا ما جعل العلاقة بين الذات والآخر مرتبطة بالقلق والتشظي، فاتحة النار وبحس نسوي على السلطة الذكورية ومؤسساتها لتحقيق الانتصار لها وللمرأة الجزائرية عموما؛ وقد تحقق ذلك من خلال النماذج النسائية التي ذكرتها الرواية واللواتي تمردن على الأعراف البالية لتحقيق ذواتهن المتحررة، وإلهام غيرهن للوصول إلى الحريّة، وفي نفس الوقت كانت تتسم الرواية بنوع من التعايش والانفتاح على ثقافة الآخر وأخذ ما يفيدها، وبذلك جعلت رواية ب"وابة الذكريات" التجربة الجزائرية تجربة إنسانية منفتحة ساهمت في ايصال الأدب الهامشي واسماع صوته.

قائمة المراجع:

1. آسيا جبار، بوابة الذكريات، ترجمة أحمد يحياتن، موقان، الجزائر، أفريل، 2014.
2. أحمد رابطي، فتيحة كحلوش، الرواية ما بعد الكولونيالية، والأنثى المهمشة، قراءة في رواية "حطب سراييفوا، مجلة اللغة الوظيفية، جامعة حسيبة بوعلي الشلف، الجزائر، المجلد 10، العدد1، 2003.
3. بيل أشكروفت وآخرون: الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة) ترجمة: شهرت العالم، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، ط1، 2006.

4. راضية شافعي، إدوارد سعيد ونقد الخطاب الكولونيالي الغربي، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، جامعة عباس لغرور خنشلة، الجزائر، المجلد 3، العدد10، أكتوبر 2019.
5. سعد البازغي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، لبنان، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط2،2000.
6. سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي (إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د ط)، (د ت).
7. علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1995.
8. كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة: جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ط1.

هوامش وإحالات المقال

[1] علي حرب، نقد النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1995، ص 16.

[2] بيل أشكروفت وآخرون: الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة) ترجمة: شهرت العالم، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، ط1، 2006، ص 16.

[3] كريس باركر، معجم الدراسات الثقافية، ترجمة: جمال بلقاسم، رؤية للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ط1، ص 364.

[4] سعد البازغي، ميجان الرويلي: دليل الناقد الأدبي، لبنان، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط2،2000، ص 91- 92.

[5] كريس باركر، المرجع السابق، ص، 365-364.

[6] أحمد رابطي، فتيحة كحلوش، الرواية ما بعد الكولونيالية، والأنثى المهمشة، قراءة في رواية "حطب سراييفوا، مجلة اللغة الوظيفية، جامعة حسيبة بوعلي الشلف، الجزائر، المجلد 10، العدد1، 2003، ص 437.

[7] راضية شافعي، إدوارد سعيد ونقد الخطاب الكولونيالي الغربي، مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية، جامعة عباس لغرور خنشلة، الجزائر، المجلد 3، العدد10، أكتوبر 2019، ص 222.

[8] سمير خليل، دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي (إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة)، دار الكتب العلمية، بيروت،(د ط)، (د ت)، ص258 .

[9] آسيا جبار، بوابة الذكريات، ترجمة أحمد يحياتن، موقان، الجزائر، أفريل، 2014، ص، ص 63-62.

[10] المرجع نفسه، ص، 63.

[11] المرجع نفسه، ص، ص 496-495.

[12] المرجع نفسه، ص 63.

[13] المرجع نفسه، ص 440.

[14] المرجع نفسه، ص 441.

[15] المرجع نفسه، ص 482.

[16] المرجع نفسه، ص 496.

[17] المرجع نفسه، ص 496.

[18] المرجع نفسه، ص 137.

[19] المرجع نفسه، ص 136.

[20] المرجع نفسه، ص 203.

[21] المرجع نفسه، ص، ص 162-161.

[22] المرجع نفسه، ص 163.

[23] المرجع نفسه، ص 163.

[24] المرجع نفسه، ص 53.

[25] المرجع نفسه، ص 112.

[26] م ن، ص ن.

[27] المرجع نفسه، ص170.

[28] المرجع نفسه، ص 172.

[29] المرجع نفسه، ص 178.

[30] المرجع نفسه، ص 180.
[31] م ن، ص ن.
[32] المرجع نفسه، ص 232.
[33] المرجع نفسه، ص 228.
[34] المرجع نفسه، ص 229.
[35] المرجع نفسه، ص، ص 432- 433.
[36] المرجع نفسه، ص 459.
[37] المرجع نفسه، ص 241.
[38] المرجع نفسه، ص 405.
[39] المرجع نفسه، ص 192.
[40] المرجع نفسه، ص 196.
[41] المرجع نفسه، ص 196.
[42] المرجع نفسه، ص 203.
[43] المرجع نفسه، ص 204.
[44] م ن، ص ن.
[45] المرجع نفسه، ص، ص 39- 40.
[46] المرجع نفسه، ص 189- 190.
[47] المرجع نفسه، ص 192.
[48] المرجع نفسه، ص 151.
[49] المرجع نفسه، ص 151–152 .
[50] المرجع نفسه، ص 183.
[51] المرجع نفسه، ص 179.
[52] الرجع نفسه، ص 180.
[53] م ن، ص ن.
[54] المرجع نفسه، ص 230.
[55] المرجع نفسه، ص 432.
[56] المرجع نفسه، ص 482.
[57] المرجع نفسه، ص، ص 181-182 .
[58] المرجع نفسه، ص 198.
[59] المرجع نفسه، ص 204.
[60] المرجع نفسه، ص 152.
[61] المرجع نفسه، ص 147.
[62] المرجع نفسه، ص 148.
[63] المرجع نفسه، ص، ص 423- 424.
[64] المرجع نفسه، ص، ص 437- 438.
[65] المرجع نفسه، ص 199.
[66] المرجع نفسه، ص 47.
[67] المرجع نفسه، ص 49.
[68] المرجع نفسه، ص، ص 176-177 .